ابو الطيّب المتنبي (٩١٥ــ٩٦٥)

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربيّة في كليّة القديس يوسف

٣

الشاعر

طريقته في المراثي والمفاخر والحكم

تكلّمنا في العدد الماضي عن شعر المتنبي اجمالًا ، ودرسنا طريقته في المدح والهجاء خاصّة ؛ واجتهدنا في تحليل فنّه ، فرأيناه شاعر العظمة على الاطلاق . وها نحن الآن نتابع البحث في طريقة الشاعر اذا ما اراد رثاء او فخرًا او ارسال حكمة فنقول :

المراثي

من شروط الرثاء ، كي يأتي طبيعيًا لا يتكلّفه الشاعر ولا يضجر منه المطالع ، ان يشعر الراثي بقوّة المصيبة ، وتأثير الفاجعة . وقد يأتي هذا الشعور على نوعين : نوع عاطفي ينصرف فيه الشاعر الى ابراز ما يخالج قلبه من دواعي الحزن ، وعوامل الأسف على شمائل المرثي وفضائله ، دون ان يحكّم عقله في عرض مصيبته على مصائب الغير مثلًا ، او الالتفات الى هذا العالم الفاني ، والدنيا الغرّارة . ونوع عقلي يتّحد فيه الرثاء بالتعزية ، والحزن بالسلوان . فيرتفع الشاعر من ذكر مصيبته ، الى الافكار العامّة كزوال الاحباب ، وفناء الدنيا ، وسطوة المنون وغير ذلك . ونحن ، اذا تدبّرنا فنّ المتنبي في رثائه نراه يرغب في النوع الاخير ، ولا غرابة ، فقد عرفناه شاعر الافكار والحكم ، لا تتملّكه الاحساسات الرقيقة ، ولا تضلّ عقله شوارد القلب المختلفة . فهو

حتى في رثاء جدّته ، التي كان يحبها كثيرًا ، لا يفقد عظمة المروات الشامخة التي يلزم ان تترفع ، في اعتقاده ، عن عواطف السوقة ؛ فلا يكاد يفسح مجالًا لعواطفه ويقول :

أحنّ الى الكأس التي شربت بها وأهوى لمثواها التراب وما ضمّا
بكيت عليها خيفةً في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما

حتى تعاوده افكار التعزية ، والترفع عن المصائب ، ومقابلة حوادث الدهر بالصبر ، لا صبر الخاضع المستكين ، بل صبر القرن على غدر قرنه ، فيقول :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهتني لم تزدني بها علما

. . .

كذا أنا يا دنيا ! اذا شئتِ فاذهبي ! ويا نفس زيدي في كرائهها قدما !

وكأنه ينتبه فجأة الى ما سيقوله حساده ، في هذه المصيبة ، وهو يأنف من الشماتة ، وخصوصاً في الوقت الذي لا شماتة فيه ، فيفخر عليهم سلفاً ، ويسكتهم قبل ان يتشدقوا ، فيصيح :

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأنفهم رغما.

واننا لا نرى ، في غير ما تقدم من رثاء جدته ، اثرًا لعواطف الحزن الطبيعي ، وتأثيرات الاسف الحقيقي ، اللهم بعض ابيات من رثاء ابي شجاع. ولا يلام شاعرنا على هذا النقص لما قدمناه من الاسباب. امّا اذا ألزمته ان يموّه على الناس ، فيخترع حزناً لا يشعر به ، ويصف مفاعيله المزعومة في قلبه ، ويظهر تأسفاً على مزايا فقيدة او شمائل فقيد لا يهمّهُ من امرهما شيء ؛ فانك تدخله في مأزق لا يعرف كيف يتخلص منهُ ، وتكلّفه ما لا يستطيع . فتراه حائرًا يطرق ابواب التملص فلا تنتح لهُ الّا بالتعسف ، ويجرّب طرق التجملات فلا تنبسط امامه الّا بالابتذال . وربما جرّه جهل الاساليب اللطيفة في مواقع الكلام الى فساد الذوق واساءة الادب ، فخاطب ام سيف الدولة المرثية بقوله :

بعينكِ ! هل سلوتِ ؟ فانّ قلبي وان جانبتُ قبركِ ، غيرُ سالي !

او عزّى سيف الدولة عن أخته بقوله (مخاطباً الارض) :

وهل سمعتِ سلاماً لي الم بها فقد أطلتُ وما سلّمتُ عن كثبِ !

وهو غاية الغايات في سوء الادب وفساد الحسّ ، والجهل بمواقع الكلام ، حتى قال ابو بكر الخوارزمي : « لو عزّاني انسان عن حرمة لي بمثل هذا ، لاحتته بها وضربت عنقه على قبرها . »

أمّا اذا خلّصت ابا الطيّب من هذه الواجبات ، التي لا يأبه لها ولا يهمه امرها الى التعازي الحكمية والاقوال الفلسفية . فهناك لا يسعك الّا الخضوع امام الحكم الشائقة التي سارت امثالًا على كرّ الايام . وايّ انسان تتراكم عليه المصائب ، فيهدّه الاسى ، ولا يقول خاضعاً:

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فصرت اذا اصابتني سهامٌ تكسّرتِ النصالُ على النصالِ!

وايّ حكيم يرى سيطرة الموت الهائلة ، وعقم الوسائط البشرية في الخلاص منهُ ، ولا يردّد :

يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبّه !

وعلى الجملة فاننا نرى المتنبي معزّياً حكيماً ، لا راثياً عاطفياً .

المفاخر

لم يفرد ابو الطيب قسماً خاصاً من شعره لنظم مفاخره ؛ لانهُ لم يكن ليعتقد بامكانه نظم قصيدة لا يفخر فيها . فكل شعره مجال لكبريائه وعجبه بنفسه ، وعظمته على الغير . وهو ، من هذا القبيل ، في اعتقاد صادق ، وايمان راسخ ، حتى انهُ يعطينا اسباب هذا العجب ؛ وهي عدم وجود من يماثله في الكون ، وذلك قوله :

ان أكن معجباً فعجبُ عجيبٍ لا يرى فوق نفسه من مزيدِ !

ولكن هذا الفخر ، لم يكن المتنبي ليرضاه على عامّة الناس ، على السوقة ؛ وايّ فضل في ان يكون الانسان خيراً من ذاك الصنف من المخلوقات الذي يجمع فيه ابو الطيّب اللئام ، والعبيد ، والبهائم ، والجناة ؟ ايّ فضل في ان يكون المتنبي اشرف من البشر الاعتياديين ؟ ؟ ؟ انما الفخر كل الفخر في ان يفوق المتنبي المتفوّقين ، ويشرف الشرفاء ، ويفخر الفخورين ! ولهذا نراه يجتهد ، في مفاخره ، حتى يصوّر سادات القوم عظماء شرفاء ثم يصوّر نفسه فوقهم . فيقول جاعلاً نفسه مصدر كل فخر وشرف لحقّ باهله وجدوده ، مع أنهم مصدر كل فخر لحقّ بابناء الضاد كافة :

لا بقومي شرفت ، بل شرفوا بي ! وبنفسي فخرت لا بجدودي !
وبهم فخر كلّ من نطق الضا دَ ، وعوذ الجاني ، وغوث الطريد !

اما ما سوى نفسه من جميع ما « خلق الله وما لم يخلق ايضاً فمحتقر في همته ، كثيرة في مفرقه ! »

وقد يتجاوز هذا الاحتقار المعاني الى الالفاظ ، والاوزان ، والصيغ ، فترى جميع من يحقّرهم يكافور ، « عضاريط وعاديد » ويصير كافور « خنزيراً وثعلباً وكلباً » ، وشفته « مشفراً » وشخصه « مجموعة مخازٍ » ويصبح الناس المتساوون « سواسية » والبشر « خلقاً واشباحاً » والملوك « ارانب » . ويضحي كل شيء صغيراً في عيني المتنبي حتى لا يعبّر عنهُ الا بصيغة التصغير ، فهو اذا خاطب كافوراً سمّاه « كويفيراً » ، وخويدماً ، والنوبي بُنيّ النوبية » . واذا شكا زمانه ، ذمّ « اهيله » ، وهجا « أحيمقه » ، وانكر القيادة فيه على « ابن الأعير » ، واخفت ، تحت جنبه ، صوت كل « شويعر » يقاويه ...

الحِكَم : فلسفة المتنبي ــ مذهبه في ما وراء الحياة

شاء الاستاذ عباس محمود العقاد ان يجعل من المتنبي فيلسوفاً ، يرفعه الى مقرّ فلاسفتنا العصريّين ، فيجعله جنب نيتشه ، حامل لواء الجبروت الجرماني في آخر القرن التاسع عشر ، بل يجعله سابقاً نيتشه الى الكثير من افكاره ومبادئه ،

موفقاً بينه وبين داروين في الطريقة التي يفهم بها البشر حياتهم وغايتها ، ويحفظون ذواتهم . . . (١

اما اذا كان الفيلسوف ذاك العالم المهتمّ بالتفتيش عن اسباب مظاهر الكون ، ودواعي الحياة ، الباحث في كيفية تطوّر الحوادث ، المتعمق في استقصاء المقدّمات والنتائج لكل محسوس ومعقول ؛ فما انأى المتنبي عن الفلسفة ، وما ابعده عن لقب الفيلسوف . واما اذا كان المقصود بالفيلسوف كل رجل يختص بمذهب شخصي في هذا الكون ومن يعيش فيه ، ثم يراقب طرق الحياة واخلاق البشر ويردّها الى ذاك الأصل ؛ فلتكن مشيئة الاستاذ ، وليفتحْ صرح الفلسفة ابوابه واسعة لاستقبال الشاعر الفيلسوف !

عرفنا ابا الطيّب متكبرًا معجباً بنفسه «لا يرى فوقها من مزيد» ، سبّاقاً للغايات ، طالباً منها ابعد ما يتصوّره الفكر ، وكل ذلك بقوّته وهمّته ، لا بحسن حظّه «لان نجمه دائمًا في نحوس ولكنّ همته في سعود» . فلزم اذًا ان تكون هذه الكبرياء المتجسّمة بهمة شاعرنا ، اصلَ فلسفته . فهو ، والحالة هذه ، يتفق ونيتشه ، فيلسوف القوّة ، وخالق «الانسان السامي» . ومن يقابل بين ابيات المتنبي واقوال نيتشه، كما فعل الاستاذ العقّاد ، يتحقق صحة هذه المشابهة ، ويرى ان الشاعر الشرقي في القرن العاشر ، لم يكن لينحطّ ، فكرًا وتعبيرًا ، عن الفيلسوف الغربي في القرن التاسع عشر . من منّا يسمع نصائح نيتشه قائلًا :

«يا اخواني في الحرب ! اني احبكم من كل قلبي . . . فاسمحوا لي ان اقول لكم الحقيقة :

«كونوا عظماء . . . فتشوا عن اعدائكم . . . حاربوا . . .

«عليكم ان تحبوا السلم كواسطة للحروب الجديدة ! . . .

---

١) عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة — ص : ١٤٤-١٧٦

« انا لا انصح لكم العمل بل الكفاح ! انا لا انصح لكم السلام بل النصر . ليكن عملكم كفاحاً وسلمكم نصراً . » (١)

من منا يسمع هذه النصائح ولا يفكر حالاً بنصيحة المتنبي :

اذا غامرت في شرفٍ مرومٍ فلا تقنعْ بما دون النجوم !

او بحالته الدائمة في الحرب والكفاح . كقوله :

مفرشي صهوة الحصان ، ولكنّ م قميصي مسرودةٌ من حديدِ !

وقوله محدّداً المجد :

فما المجدُ الّا السيف والفتكة البكرُ
وتضريبُ اعناق الملوك ، وأن تُرى لك الهبوات السود والعسكر المجرُ . . .

اما طريقة طلب حقه فلا تختلف في شيء عما ينصّ نيتشه . فهي ليست العمل بل الكفاح والعراك :

سأطلب حقي بالقنا ، ومشايخٍ كأنهم ، من طول ما التثموا ، مُردُ

وهو لا يسلك الّا هذه الطريق :

ولا سالكاً الا فؤاد عجاجةٍ ولا واجداً ، الا لمكرُمةٍ ، طعما !

إن مبدأ فلسفة المتنبي القوة ، والطريقة الوحيدة لإدراك الغايات ، في عرفه ، هي الكفاح والعراك . ولما كان في البشر شجعان وجبناء ، انقسم الناس بحكم الطبع ، في مذهب شاعرنا الى قسمين : في القسم الاول ، يرى الشجعان ، السادات ، الكرام ، الأحرار ، وبعض الملوك . وهؤلاء وحدهم يليقون ان يكونوا اقراناً للمتنبي ، يكافح معهم ، ويحاربهم فيكون له الفضل ، اذا ما انتصر عليهم . اما القسم الثاني فيشمل الجبناء ، اللئام ، البهائم ، العبيد ككافور مثلاً ، وبعض الشعراء من حسّاد المتنبي ، وهؤلاء لا نفعَ منهم إلّا تضييق مجال الكون ، ولا يليق بالكريم ان يناظرهم او يسابقهم الى امر ، حتى انه لا يليق به ان يعيش معهم الّا كما « يعيش الذهب بين

(١) فريدريك نيتشه : « هكذا قال زرادشت » ــ القسم الاول ــ ص : ٦٣ـ٦٦ ، من الطبعة الفرنساوية ١٩٢١

الرغام » اما اذا أُجبر الحرّ على الحياة طويلاً مع هذا النوع من « الخلق » فيكون الموت والحياة سواء :

وما موت بابغض من حياةٍ ارى لهم معي فيها نصيبا !

وهذان القسمان من الناس متباينان تماماً فلا صلة بينهما ، ولو تقاربا في الظاهر :

فالعبد ليس لحرٍّ صالحٍ بأخٍ لو انه في ثياب الحرّ مولود !

حتى ان افكار القسم منها لا تشابه افكار القسم الآخر . فبينما يرى احدهما المجد في اللذّات والشرب ، يراه الآخر في الحرب والانتصار . وبينما يعتقد الجبان ان الواسطة لبقاء نفسه هي ان يصونها عن الحرب ، يرى الشجاع عكس ذلك ، اي انه يحافظ على نفسه بدفع المهالك . اما سبب هذا التباين في الافكار فناتج ، كما رأينا ، عن اختلاف الجبلات ، وتعوّد العبيد الذلّ حتى انهم لا يشعرون بذلهم بعد ذلك:

من يهنْ يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميتٍ ايلامُ !

وهنا ، على ما ارى ، يقف وجه الشبه بين الشاعر العربي والفيلسوف الجرماني . فان شاعرنا لا يهتم بكل نتائج هذا المبدأ ، ولا يضحّي بالضعفاء في سبيل تعزيز القوي وخلق « الانسان السامي . »

اما مذهب المتنبي في ما وراء هذه الحياة ، فقد اختلف الادباء فيه لاختلاف مقاصد الشاعر في ابياته المتفرّقة . فنسبه بعضهم الى السوفسطائيين ، وهم من لا يعتقدون بوجود المحسوسات ، بقوله :

هوّنْ على بصرٍ ما شقّ منظرهُ فانما يقظات العين كالحُلُمِ !

وقال غيرهم بل هو على مذهب الحوانية او المادية بدليل قوله :

تبخلُ ايدينا بارواحنا على زمانٍ هنّ من كسبهِ
فهذه الارواح من جوّهِ وهذه الاجسام من تربهِ ! (١

(١) ابن نباتة المصري : سرح العيون – ص : ١٧

واعتقد بعضهم انه كان من الشاكين فقال:

تخالف الناس حتى لا اتفاقَ لهم   الّا على شَجَبٍ والخلفُ في الشَّجب

فقيل : تخلص نفس المرء سالمةً   وقيل: تشرك جسم المرء في العطب

على اننا نعتقد ان المتنبي لم يكن له مذهب خاصّ في هذه الامور ، وهو كما عرفناه ، لا جلَدَ له على البحث والتفكير في مصدر الانسان ، ومصيره ؛ فقطع تلك المشاحنات بقوله :

ومن تفكَّر في الدنيا ومهجته   اقامه الفكر بين العجز والتعب

وهو لا يحبّ هذا النوع من العجز . ولا يرى من مظاهر الحياة غير القوة وحسب . وعليه ، فانه كما امكننا القول عن المتنبي الشاعر انه «شاعر العظمة» كذلك يمكننا التأكيد ، اذا ما ذكرنا المتنبي المفكر ، أنه « فيلسوف القوَّة »!

جولة في كسروان

لحضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني

٣ً ريفون (١

ريفون من اجمل قرى كسروان الصرديَّة موقعاً ، وافضلها مناخاً ، وابهاها منظراً ترتفع عن البحر نحو ١٢٠٠ متر . فان العين تقع منها على القرى الجميلة والجبال الناطحة برؤوسها السحاب وهي مطلقة للبصر مداهُ من جهاتها الاربع فشرقاً ترى صنين ومزرعة كفرذبيان ، وقبلةً ظهور الشوير وبكفيا وبجرصاف وقرنة شهوان وسوق الغرب ، وغرباً بيروت وسواحلها والبحر المتوسط وقسماً من مرتفعات عنطورا ، وشمالاً عشقوت ومعراب وغسطا وبزمّار وسيّدة حريصا. وهي مشيّدة على قمة عالية ومكسوَّة باشجار الصنوبر البديعة ومتملقلة بين

١) يقال ان اصلها رافان : اسم صنم . راجع تاريخ "المقاطعة الكسروانية ص ١٥